# المسيحية ضرورة اجتماعية[1]

الإنسان مدني بالطبع، فالمسيحية وإن مست الحياة الشخصية الداخلية، فإن ثمار هذه الحياة تنعكس على المعاملات الاجتماعية في الخارج. وإذا قلنا إن المسيحية فردية، فلا نستطيع مع ذلك أن ننكر أن المجتمع ما هو إلا مجموعة من الأفراد، وأنه يلزم لهؤلاء الأفراد أسلوب يتعاملون به، وأفكار معينة تشيع بينهم لتنظم علاقاتهم بعضهم بالبعض الآخر. وكلما كان هذا الأسلوب رفيعًا، وكلما كانت هذه الأفكار سامية، كلما ضمنا معاملات رفيعة سامية بين الناس. والمسيحية رفعت مستوى التعامل بين الناس، ونحن حين نتحدث عن المستوى المسيحي نعني المستوى الذي يصل إليه الإنسان حين يسامح عدوه الذي أساء إليه، أما حين نتحدث عن المستوى الطبيعي فإننا نعني المستوى الذي يقف فيه الإنسان عند حد الإحسان إلى المحسن، والإساءة إلى المسيء، ويبقى بعد ذلك أن نتحدث عن المستوى الأقل من هذا وذاك، وهو مستوى الإنسان المعتدي الظالم الذي يتعامل بلغة الغابة كما في سياسة الاستعمار مثلًا. وإذن فلدينا ثلاثة مستويات، أعلاها المستوى المسيحي، وأوسطها المستوى الطبيعي، وآخرها المستوى الغابي إذا أردت تعبيرًا صريحًا.

وفي اختصار يقتضيه المقام ندلك على أن المسيحية ضرورة اجتماعية بما يلي:

١- إن الله لا يمكن - سبحانه - أن يناقض ذاته. فالإنسان مدني بالطبع، والغريزة الاجتماعية إحدى الغرائز التي تحركه، فلا يمكن أن تكون المسيحية - وهي ديانة السماء - مناقضة لهذا المبدأ الطبيعي. فإذا قلنا إنها تهدف إلى تكوين حياة شخصية داخلية نقية، فهذه ليست غاية في ذاتها، وإنما لتكون بدورها وسيلة لثمر متكاثف بين الناس في التعامل معهم بالخدمة والمحبة والاحتمال.. إلخ، عندما يتعامل الإنسان مع الناس.

٢- يشبه القديس بولس جماعة المؤمنين بالجسد، تعمل أعضاؤه في توافق، وكل عضو يخدم الأعضاء الأخرى. فنحن في حياتنا في المجتمع نعيش معًا كأعضاء الجسد، تربطنا معًا صلات وعلاقات مختلفة متباينة، تحتم علينا طرائق للتعاون وتبادل المصالح والخدمات. الطرائق والعمل بها أوصت بها المبادئ المسيحية.

٣- في اعتراف المسيحية بأهمية الاستقرار في الأسرة، ومنع الطلاق، وتعدد الزوجات وما يترتب على سوء استخدامهما من شرور وبيلة تطعن المجتمع في صميم كيانه، دليل ثالث على أن مبادئها ضرورة اجتماعية.

٤- رفعت المسيحية من مركز المرأة، فساوتها بالرجل، وفي هذا رفع لمقام نصف المجتمع، وضمان لعدم احتقار الرجل لها، فتؤدي واجبها كاملًا على أحسن وجه، ولهذا خطورته البالغة الأثر على المستوى الأدبي في المجتمع.

٥- كذلك رفعت المسيحية من شأن الطفولة، وكل التغيرات الفكرية التي جاءت فيما بعد لم تأتِ بجديد بعد أن بارك المسيح الطفولة، وجعل مستواها الروحي هو أعلى المستويات التي يرنو المؤمن إلى الوصول إليها. وإذا رفعنا مستوى طفولة اليوم، فمعنى ذلك أننا نعد لجيل سليمًا في الغد. أي أن المسيحية أوضحت الطريق إلى المستقبل الذي يجب أن يسعى إليه المجتمع بتربية أطفاله والاهتمام بهم اهتمامًا خاصًا.

---

[1] هيئة التحرير "المسيحية ضرورة اجتماعية"، مجلة مدارس الأحد، السنة السابعة، العدد السابع، سبتمبر ١٩٥٣م.

٦- أوضح مثال السامري الصالح المعنى المقصود من كلمة "قريب"، فهو من يصنع الرحمة بصرف النظر عن اعتبار اختلافات الجنس واللون والدين واللغة والقومية.. إلخ. إن المسيحية تهدف إلى تكوين عالم واحد يسوده الحب والتآخي. أليست هذه هي أفكار اليونسكو في الوقت الحاضر؟ ألا تسمو إلى فكرة العالم الواحد؟!

٧- تعلمنا المسيحية من الفضيلة، وتعطينا النعمة الكفيلة بتقويتنا على العمل بها. ففي المسيح الذي يقوينا نستطيع كل شيء. وهذا الإيمان بالفضيلة في حياة الفرد ينتقل بدوره إلى الحياة في المجتمع، فتصبح الفضيلة هي الشعار في التعامل. ومن هنا نهتنا المسيحية عن الحلف، والكذب والسرقة، والشتيمة. وهذه كلها الخطايا الواضحة. لكن المسيحية لم تكتفِ بذلك، بل هي تصل إلى الأعماق، فتوصينا بعدم التفاخر أو إساءة الظن بأحد أو الفرح للإثم أو تقبيح سيرة أو أعمال الغير، وهكذا.

والفضيلة -كما نعرف- كل لا يتجزأ، بمعنى أنني لا أقول: لقد اعتزمت اليوم التوبة عن السرقة، بينما في الوقت ذاته أنا أرتكب خطيئة الكذب. ليست هذه فضيلة؛ لأن الفضيلة وحدة، ومن يعتنقها يعتنقها ككل واحد لا يتجزأ سواء أكان ذلك في حياته الشخصية أو في حياته الاجتماعية.

٨- والمسيحية لا تنكر الواجب العام والمصلحة العامة. فالقاضي المسيحي على منصة القضاء يحكَّم بما يأمره القانون، وقد يحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة، لكنه في حياته الخاصة قد يتسامح ويتنازل عن بعض حقوقه. وإذن فالمسيحية تحمي المجتمع، بل إنها توصي بأداء الواجب على أكمل وجه. وهي تفرق بوضوح بين العمل الخاص، والعمل العام. في العمل الخاص تعاتب، وتستعين بالآخرين، وبالكنيسة لكي تربح أخاك وتنهي النزاع بينكما، لكن في العمل العام ليس الأمر كذلك.

٩- أما أن المسيحية لا تضع نظامًا سياسيًا أو نظامًا اجتماعيًا معينًا أو اقتصاديًا مثلًا، فليس هذا من شأنها؛ لأنها أعطت الخطوط الأولى الأساسية للتعامل والتواد بين الناس، وتركت لكل أن يقدم مواهبه وفق ما يستطيع. ومع ذلك فيجب أن نقول إن هذه النظم متغيرة من عصر إلى آخر، بل وفي العصر الواحد قد تتغير بين عام وآخر، فليست إذن مهمة المسيحية أن تضع نظامًا جامدًا متحجرًا لا روح فيه ولا حياة....

لا، إنما اكتفى المسيح له المجد برسم إطار الحياة التي يجب أن نحياها معًا، وبداخله حدد الخطوط التي يجب أن نسير عليها.